

فضل البكورية

للبكورية من قديم الزمان الى الان امتياز عظيم يمتاز به الابناء ويژهى به الآباء لان الى البكر ينتمى شرف الاسرة وبه تسود واليه تلقي مقاليدها واتكلمها وهو المسئول دون سائر افرادها ولذلك لا نعجب اذا احتال يعقوب لان يشترى بكورية اخيه عيسو ولا نستغرب اقرار الانكليز على القاء الارث كله الى البكر من الاولاد

على ان امتياز البكورية على حسب ما يبدو من ظاهره يعد ظالماً او هو من قبيل موآاة الحظ وموافقة البخت ولا سيما للاولاد الذين ينالهم النفع من هذا الامتياز كاولاد الملوك خاصة واولاد الانكليز عامة لان القاء الملك الى اكبر انجال الملك مما لا يبدو منه شيء من الحكمة اذ قد يكون من بعد البكر اشد منه ذكاء واتم ادراكاً او اجود منه صحة وامن تركيباً واقدر على الاضطلاع باعباء الملك والقيام بمتابعه ولذلك يعدون من حسن الرأي والتقدير ان يلقي الحكم الى اكبر من في الاسرة المملوكة كما يفضل الخلفاء دون القائه الى اكبر الانجال كما يفعل ملوك الافرنج وذلك لان درجات الرشد تتبع درجات السن وقد طالما كانوا في القديم يلقون تبعه الشبان على الشيوخ ويتدبون الشيوخ للبعثات والسفارات وما نظن مجالس الشيوخ الموجودة الان في اوربا الا مأخوذة من ذلك النسق القديم

ولقد يعلم القراء ان الباحثين في هذا العهد ما تركوا شيئاً الا اوسعوه نقداً ولا غامضاً الا ملاءه ووضوحاً فلقد راقبوا الجانين مثلاً فوجدوا ان لهم اختصاصات من الطبيعة تدعوهم الى الجناية وليس كل انسان في مذهبهم يعد

جانياً بالاطلاق وراقبوا السكيرين واللصوص وكل ذي حالة نادرة بين الناس فوجدوهم قد خلقوا مخصوصين لذلك ولم تكن التربية او المادة الا عوناً لهم على ما اخذوا فيه دون ان تكون منشئة اياهم انشاء . ولقد راقبوا العلماء والشعراء والمصورين والكتاب وكل رجال الحكمة والعقل فوجدوا لهم حالات خصوصية قد انشأت عقولهم وميزتهم عن سواهم فقالوا ان الفقر بموم حالته مما ينشئ كبار الناس لانه ندر ان كان غني عالماً حاذقاً وان المزارع والقرى مما تولد رجال العقل والفلسفة اذ ندر ان صدر من مدينة فيلسوف او جاء من عاصمة عالم . ولهذا حكموا بان افضلية البكورية لا بد ان يكون لها من سبب

اما وجوه الافضلية فغير معروفة لديهم بالتمام ولكنهم وجدوا الافضلية كائنة على كل حال حتى ترجح لهم ان الانسان يقرب شيئاً من النبات من حيث نموه وجودته فان الثمر الذي ينتج من الشجرة في اول عهدها يكون على الاغاب اجود مما ينتج منها بعد ان تكبر وتصلب اعوادها وكذلك المرء الذي يكون اول مولود يكون اتم واجود ممن يولدون بعده وهذا كما قلنا يجري على حكم الارجحية دون حكم التعميم

اما مراقبة هذا الشأن في الناس كلهم فيما لا يتفق الظفر به ولكن المرجح ان افضلية البكورية مطلقة بينهم على السواء بدليل اثارهم لها من القديم واعتقادهم انها مصيبة صاحبها عن استحقاق بامتياز قوة قد اختص بها وليس عن موآاة اقدار وموافقة حظوظ وهم اذا كانوا صادقين فيما يدعون للبكورية من الفضل فقد يكون ذلك من قبيل التعويد والتربية وليس من الحلقة الغريزية لان بكر الاسرة ينصرف اليه الجهد دون غيره من قبيل

المسرة به اذ كان اول قادم عليها فيخرجها فضل على اخوته . بل انه اذا كان الجهد منصرفاً اليه والى اخوته بانسواء فان كونه اكبرهم واسبقهم في العمر مما يهيئ له زيادة من العقل دونهم اذا كانوا متساوين فيه بالحققة لان زيادة السن انما هي زيادة عقل وتجربة . ولعل هذا هو الحكم الاصح في كون البكر مفضلاً على اخوته . على ان الباحثين الذين يعتمدون على المشاهدات والاقيسة والتقاويم يقولون انه لا يمد من عطاء العالم اثنا عشر عظيماً حتى يشاهد ان نصفهم او اكثر قد كانوا اذكراً وسائرهم مختلفين في درجات الولادة بحيث تحصل لديهم ان افضلية البكورية مؤكدة لا بد منها وما جاء من سواها يمد نادراً او غير ذي قياس مضبوط . وقد كان في جملة من استندوا اليهم افضلية البكورية كثيرون من الانبياء العظام وقواد الجيوش والملوك الذين نالوا الملك دون ارث كما انهم ذكروا عدداً عديداً من عطاء القرون الوسطى والقرن الماضي كانوا كلهم اذكراً . ومن تخلف منهم عن البكورية لم يكن لهم قياس يقاسون عليه كأن يكونون من الولادة الثانية او الخامسة او التاسعة دون قيد ولا ضبط يعرف به من اين جاءت افضليتهم الطبيعية

ولقد كنا نود ان نتعرض لبحث في هذا الموضوع من جهة الاستشهاد بعظمائنا العرب كما استشهد غيرنا بعظماء الافرنج وبعض الاقدمين ولكننا وجدنا مع فرط الاسف ان مؤرخينا قد كانوا من اشد المؤرخين اهمالاً للحالات الخارجة عن حد المؤرخ نفسه . فهم يذكرون لنا مثلاً الخليل والمني والمعري وابا تمام والبحتري وابن سينا وابن رشد وابن الطفيل وابن خلدون وعبد الحميد وابن المقفع وكثيرين امثالهم ممن لا يمدون عطاء العرب وخدم بل عطاء العالم كله ولكنهم مع ذلك لا يذكرون لنا منهم الاذواتهم واعيانهم

فقط دون ذكر شيء من اخلاقهم او طرق معايشهم وعاداتهم الا ما جاء اتفاقاً دون ارادة . وعلى هذا فنحن نعرف مثلاً المنيني ولكننا لانعرف هل كان بكرة او كان الثاني والثالث ثم لاندري من كانت امرأته ولا من هم اولاده وكذلك غيره ممن ذكرنا لانعلم عنهم شيئاً مع اننا نكاد نعرف اسماء خيولهم ومطاياهم وسيوفهم وما هو ادنى من هذا بكثير وكل هذا ولا شك يمد من التقصير الذي لا يفتقر لان العظيم يجب ان يكسب غيره العظمة من طريق الاضافة ونظن ان امرأة المنيني قد كانت اولى بان تذكر من اسم جواده الطخور وكذلك كان الاولى ان يذكر لنا اسم جدته التي رثاها بتلك القصيدة الطنانة فان تلك المرأة التي ولدت منه رغماً لانوف حساده كما يقول قد كانت على جانب من الفضل يوهبها لذكر اسمها ولكن العرب ساءهم الله قد احتقروا المرأة اولاً حتى احتقروا اولادها واولادهم وكل ما يتعلق باسمهم ومنزلهم ولهذا لا ندري منهم الا اعيانهم فقط وما سوى ذلك فجهول لا نستطيع ان نأخذ منه قياساً او نستدل به على شيء . اما البكورية التي كنا بشأنها فلا نصدق بالافضلية التي لها الا من القبيل الذي ذكرناه وهو ان زيادة السن مع تساوي الاهتمام بين كل البنين مما يكسب بالطبع زيادة العقل في الناس جميعهم وليس فضل البكورية الا كفضل المتقدم بالرغم عنه او كفضل الايام بعضها على بعض كما قال ابو الطيب هو الجد حتى تفضل العين اختها وحتى يكون اليوم للامس سيدا

